عقلنة الأهداف والآليات في رد الفعل الإسلامي.. وجهة نظر أخرى

د. محمد حسام حافظ*

■ لا أحد يستطيع منع الغضب العارم لدى الأمتين العربية والإسلامية من أن يأخذ مجراه. لقد أساءت تلك الرسوم الغبية والقبيحة إلى أهم شخصية في هذين العالمين. وأهميته الإنسانية لا تقل أبداً عن أهميته وقداسته الدينية. وإذا كانت الأهمية والقداسة الدينية تهم المسلمين فحسب فإن القداسة الإنسانية تخص البشر جميعاً وذلك لأمرين اثنين: فإما أن ينظر إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام من منظور المضمون الإنساني لرسالته بغض النظر عن الإيمان بدينيتها أو ماورائيتها التي نؤمن بها نحن المسلمون أو أن ينظر إليها من المنظور الإنساني القدسي الذي يعبر عنه تقديس عدد هائل من البشر له وإيمانهم به كنبي مرسل ورمز لهوية ولثقافة. وفي الحالين المذكورين لا مشاحة من تصنيف الرسوم البلهاء تحت عنوان انتهاك حق الغير بما يراه مقدساً وحتى الاعتداء على ما يراه الغير شعوراً عاماً بالتقديس. ونحن هنا طبعاً لا نقول بأننا ننزل نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام منزلاً ألوهياً لا سمح الله وإنما نراه إنسانا رسولاً حمل رسالة خير إلى العالم أجمع، نعتقد نحن المؤمنين بها ديناً سماوياً ولنا الحق بأن يحترم الآخرون هذا الإيمان وأن يحترموا مظاهره ومستلزماته.

إذن لا أختلف مع معظم المسلمين في تصنيف ما جرى وأشاركهم الشعور بالمرارة التي خلفتها هذه الأفعال على أمتنا التي تمر بأحد أخفض المراحل في حياتها. ولعلي أجد عشرات الأعذار لمن خرج في مظاهرات مفجراً غضبه في الشوارع وعلى شاشات التلفاز من هول ما شعر من تدنيس لأحد أهم مقومات شخصيته الأيديولوجية والروحية وربما الحضارية، ولكني أجد نفسي وقد أخذت موقفاً رافضاً للعنف غير المبرر والموجه إلى غير مستأهليه. فأنا لا أرى في مهاجمة السفارات دليل صحة أو دليل غضب مبرر لنصرة القضية التي من أجلها يفترض أن العنف قد تفجر.

أبدأ فأقول إن نبينا هو نبي الحكمة والموعظة الحسنة، فهو عليه الصلاة والسلام الذي كان يخاطب الناس على قدر عقولهم، داعياً إياهم ليلاً ونهاراً سراً وجهراً إلى ما رآه من الحق. وهو الذي لم يقرب ـ حتى بعد الإذن بالقتال ـ حرمات من لم يؤذه أو يعرقل إيصال رسالته الإسلامية الخالدة. وآية القتال معروفة وأوضح من نور الشمس وهي دعوة لرد الظلم بالقوة، وليست دعوة مفتوحة للانتصار للقوة على الحكمة والموعظة الحسنة. يقول الله عز وجل في سورة الحج: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (40).

ولعل أحد أهم مصائب الأمة في الوقت الراهن هو عدم تحديد الهدف أو تعميمه بشكل يؤدي الى فقدان أهمية التحرك بل وضياعه في خضم الأحداث المتلاحقة. وأدعو هنا الى ترشيد وعقلنة تحديد الأهداف واختيارها بدقة دون تعميم مفرط. فالغرب ليس جسماً واحداً متجانساً ومعاملتنا اياه بهذا الأسلوب تعني أننا أمة عواطف وليس أمةَ عقل وحكمة. وتعني أيضاً أننا لم نتعلم دروس رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كقائد سياسي واجتماعي. فهو لم يعامل حتى المشركين على أنهم كتلة واحدةً وفي حين كان مشتبكاً مع احدى تلك القبائل في حرب مكشوفة (قريش مثلاً) حالف غيرها من القبائل المشركة ولم يقل بأنه وبسبب أن ملة الكفر واحدة يجب أن نعاملها كوحدة واحدة لا تتجزأ، بل قام عليه الصلاة والسلام بالاستعانة بهذه القبائل بسياسة بالغة الحكمة كانت بالنتيجة تؤدي إما الى النصر السياسي والعسكري أو التقارب التام بإسلام بعض تلك القبائل. كما أن رسولنا الكريم لم يعامل القبائل اليهودية في المدينة المنورة أيضاً كوحدة واحدة لا تتجزأ بل عاملها كوحدات مستقلة وعندما غدرت إحداها لم يلجأ الى إجلائها جميعاً عن المدينة المنورة أو محاربتها جميعاً بسبب نقض إحداها العهد الذي بينها وبينه بل كان في محاربته لكل منها سبب وجيه مستقل في ذاته وفي توقيته. وأنا هنا لا أريد أن أقول بأن الأصل في العلاقة بين العالمين الإسلامي وغير الإسلامي هو الحرب وبأننا يجب أن نستعمل السياسة بحيث لا نحاربهم جميعاً في ذات الوقت ولا نستعديهم جميعاً في وقت واحد، بل أقول بأن أساس العلاقة بين العالمين هو التعارف والتواصل السلمي. وفي هذا يقول الباري عز وجل في سورة الحجرات: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (13). حتى أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وقد أصيب وأدمي يوم أحد أبى أن يلعن المشركين. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل يا رسول الله ادعُ على المشركين، قال: إني لم أبعث لعاناً، و إنما بعثت رحمة». وأنا واثق أن في ذهن كل منا من الأمثلة الشيء الكثير عن الرسالة الحقيقية التي أتى بها الإسلام.

اذن، أنا لا أدعو إلى عقلنة أو تسييس «الحرب» بين العالمين الإسلامي وغير الإسلامي فأنا أعتقد أن أصل العلاقة هو التعارف والتواصل بل سقت الأمثلة من دروس سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأقول بأنه علمنا كيف نحدد الهدف ولا نحرف الطريق أو نستعمل من الوسائل ما قد يضر ولا يفيد.

فمن أوضح الأخطاء التي يرتكبها المتحدثون العرب والمسلمون إلى الاعلام الغربي هو التعميم المخل. ويعني ذلك أمرين جوهريين؛ أولهما أن يجيب المتحدث عن سؤال محدد واضح بجواب انفعالي عام يحشر فيه العالم الاسلامي ككل واحد منزه عن الأخطاء كبرت أم صغرت وفي مساحة زمنية تطول أو تقصر ويضع العالم الغربي كله في زاوية أخرى ويضيفي عليه أوصاف الهيمنة والشر وغيرها. أما الأمر الثاني فهو تجميع ما يدور في مخيلة رجل الانسان العربي من صور القهر والاضطهاد الذي مارسه الغرب الاستعماري ضد الشرق الضعيف طيلة قرون ويضعها أمام المشاهد أو المستمع الغربي لربما تحت تأثير الاعتقاد الساذج بأن هذا العمل سيوضح للجمهور الغربي ما أخفاه سياسيوه عنه وسيؤدي الى كسب تعاطفه.

وربما من المفهوم أن يتم هذا الطرح في جلساتنا العائلية والفكرية ذات اللون الواحد في الوطن العربي أو في برامج اعلامية تبثها قنواتنا الأرضية والفضائية ليل نهار ولكن أن تتم محاكاة هذا اللون من العرض أمام الجمهور الغربي وعلى وسائل اعلامية غربية فهذا لا يعدو أن يكمل الصورة النمطية السلبية التي استطاعت بناءها الآلة الاعلامية الغربية عبر عقود من الزمان. الصورة التي يظهر فيها العربي أو المسلم غاضباً حاقداً على «الغرب المتحضر». العربي الذي لا يستطيع الحوار ـ وليس فقط غير المؤمن بها لعلة موروثة متأصلة في جيناته. ومن جانب آخر، ستحفّز هذه الطروحاتُ الجانب الغريزي لدى المشاهد الغربي في شخصيته ـ وليس الفكري ـ وسيلجأ إلى رد الفعل التلقائي بالدفاع عن النفس سواء أكان متفقاً مع بعض ما يقوله المتحدث العربي (أو المسلم) أو غير متفق.

ومن جملة الأخطاء التي نرتكبها في أوج الأزمة الحالية هو استعمال ما قد نراه أسلحةً أو أدوات صراع أو نقاش لكنه بالنتيجة لا يصب إلا في مصلحة مبغضينا وأعدائنا.

فالتوجه الحالي لدى بعض المتحدثين من المسلمين أمام وسائل الاعلام الغربية في تحفيز مسألة الهولوكوست خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، بصورة سلبية كانت أم ايجابية، هو توجه تنقصه الحكمة أوً هو غير نافع على أقل تقدير. وأقصد بالشكل السلبي لتحفيز الموضوع هو أن يقال بأن الغرب لا يسمح بأن يشكك بمجازر النازيين ـ لا سيما ضد اليهود ـ ولا حتى أن يتم التداول أو التشكيك، في وسائل الإعلام، بأعداد ضحايا تلك المجازر، لذلك فإن حديثه عن حرية التعبير هو حديث فارغ وبأن ردنا على الغرب إذن يجب أن يكون من خلال تناولنا لهذا المفهوم، غير القابل للتشكيك في الغرب، تهكماً أو تشكيكاً. أما الجانب الايجابي في التحفيز فهو القول بأنه إذا ما استمر حال عداء الغرب للمسلمين فلربما نشهد ـ أو سنشهد ـ مجزرةً للمسلمين في الغرب كالمجازر التي قام بها الأوروبيون ضد أقليات عدة من يهود وغجر وغيرهم.

وقد يكون هناك عدم دقة في هاتين الإشارتين من الناحيتين التكتيكية والاستراتيجية للقضية الإسلامية. فالهدف غير محدد بشكل جيد في كلا الحالين والوسيلة بكل الأحوال غير مناسبة.

نشارك الكثيرين رأيهم بأن هناك مؤشرات عديدة على الاستخفاف بالمسلمين كدين وكثقافة وهناك انعكاس لهذا الاستخفاف على الأقليات الدينية في الغرب، لا سيما الاسلامية منها، من قبل المتطرفين في اليمين السياسي ـ وليس الديني ـ الأوروبي. وبعض هذا اليمين السياسي قريب جداً من الحركات الفاشية التقليدية ومن الحركات اليمينية الأطلسية المعروفة بعدائها للشرق والشرقيين عموماً. وقوة هذا اليمين في صعود مستمر وهو يحاول كسب المزيد من السيطرة على النخب السياسية المتحكمة بالأمن الأوروبي وعلى حلفائها من سياسيين وأكاديميين وأرباب الصناعات العسكرية والأمنية وشبكات تقديم المعلومات وتجارة الأسلحة في أوروبا. وعلى الرغم من تصاعد قوة هذا التكتل فإنه لم يصل بعد مبلغاً كبيراً من القوة بحيث يقلب المعادلات والتوازنات القائمة حتى الآن على الساحة السياسية الأوروبية والأطلسية. وهو أقل وزناً في الساحة الداخلية من التيارات السياسية الليبرالية التقليدية ـ غير الامبريالية ـ التي لا تسعى إلى حرب دينية أو ثقافية بل تنظر إليها بعين التخوف.

لكن في استعمال البعض من المتحدثين العرب والمسلمين أمام الاعلام الغربي للمقولات التي يصفونها غربياً باللاسامية ـ رغم غباء هذا المصطلح فالعرب ساميون أصلاء ـ يسهم إلى حد كبير في مد تلك الكتل السياسية بعناصر قوة ضد قوى الانفتاح الليبرالي وضد حقوق الاقليات وضد الحريات وهذا ما سيضر حتماً بالأقليات الاسلامية متزايدة الحضور السياسي في الغرب.

وبعبارة أخرى إن في استعمال هذه المقولات تقوية لعناصر معادية للقضايا العربية والاسلامية وللوجود العربي والإسلامي في الغرب من جهة واستعداءً لقوى مناصرة لقضايانا.

إن للظهور والتحدث أمام وسائل الاعلام الغربية قواعد وأصولا وخطوطا حمراء قد لا تمت إلى العدالة أو الحرية بصلة قربى وقد لا نؤمن بمصداقيتها وعلى الأغلب لا نتفق مع كثير منها، إلا أنه من الأفضل مراعاتها حتى نصل إلى فكر وقلب المشاهد الغربي. فالاعلام في الغرب يعكس وجهة نظر أوروبية عامة لمفهوم اللاسامية ولا بد للمتعاملين مع الاعلام الغربي من فهمه فهماً عميقاً بصرف النظر عن صحته أو عدالته أو قناعتنا به. وعلى الرغم من أن الحركات الصهيونية ـ لا سيما الأمريكية منها ـ قد استغلت ولا شك سياسات ألمانيا النازية أبشع استغلال لاستدرار عطف الرأي العام الغربي من أجل بناء الدولة العبرية ومدها بأسباب الحياة والقوة ضد أصحاب الحق من الفلسطينيين والعرب إلا أن اللاسامية بالنسبة للأوروبيين تعني شيئاً آخر تماماً. فما زالت أحداث الحرب العالمية الثانية العدسة الأهم في نظرة الأوروبيين لأنفسهم حتى هذه اللحظة، وما زال مفهوم الهولوكوست حجر الزاوية في تعريف أوروبا الجديدة لنفسها من خلال نوع من الاعتراف الجمعي بالخطيئة ومن خلال عدم المساس بصنم الهولوكوست في الضمير الأوربي. وحجتهم الأساسية تتلخص بأنه من الضروري الحفاظ على هذا المفهوم ـ الصنم ـ بدون تغيير وحتى بدون اخضاع لقواعد البحث والدراسة العلمية لئلا يتكرر ما حدث ابان تلك الحقبة السوداء في تاريخ أوروبا.

ويعتقد الأوروبيون أن الجانب اليهودي الصهيوني في مسألة الهولوكوست ليس الجانب الأكبر، ويرون أن الجانب الأهم هو فظاعة الاشتراك في الجريمة والسقوط الأخلاقي الكبير الذي وقعت فيه شعوب أوروبا بدرجات متفاوتة. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الشعوب الأوروبية لم تساند النازيين إلا أن ما يحرك الشعور بالذنب في مخيالها الجماعي هو سيادة احتقار اليهود في التاريخ والتراث الأوروبيين ـ شخصية شايلوك في مسرحية شكسبير تاجر البندقية الشهيرة ـ ويرى بعضهم أن هذا هو الموقف الرسمي للفاتيكان أيضاً. ومن الضروري معرفة أن المنطق الثقافي العاطفي لهذا الموضوع في أوروبا يتجاوز تناقضاته المنطقية. ومن قبيل تلك التناقضات أن معظم من يعلي شأن مبدأ تحريم التشكيك في مجازر النازيين لم يكن له يد فيما حصل من قريب أو بعيد، وبأن من قام بقتل أقليات عرقية ودينية زمن النازيين ليسوا هم أنفسهم من قرر التعويض عن الذنب بالمساهمة في انشاء الدولة العبرية وهم ليسوا ممن قام بتصرفات امبريالية تعبر عن فكر يميني غربي متطرف يحتقر الآخر.

وبالمقابل فإن كثيراً من العرب الذين يتصدون للموضوع في وسائل الاعلام الغربية يركزون على البعد الصهيوني في استغلال مجازر الحرب العالمية الثانية وقد يستعملون عبارات غير مدروسة تؤدي إلى اخافة واستعداء كتل وعناصر سياسية أوروبية تقف تقليدياً إلى جانب القضايا العربية والاسلامية.

كما أن هناك جوانب أخرى لا يمكن تجاوزها لدى تبيان خطورة الاستعمال غير المدروس لمسألة الهولوكست من قبل المتحدثين العرب والمسلمين أمام الاعلام الغربي، للتدليل على ظلم الغرب واستعماله لمعايير مزدوجة. وفي هذا السياق يمكن قراءة البحوث التي نشطت في الفترة الأخيرة والتي تتمثل في الكشف عن وثائق مزعومة ونشر الدراسات التي تدعي وجود تعاون عربي وإسلامي مع النازيين وتستغل هذه المقولات لتغذية المخيال الجماعي الأوروبي بعوامل ربط الإسلام كدين وكثقافة بالعقائد الشوفينية التي لا تعترف بالآخر والتي لا بد من استئصالها. ومن ذلك ما يدعيه بعض الباحثين بأن النازيين كانوا يستعملون عواصم عربية كمركز لهم ضد دول الحلفاء. ويسوق هؤلاء موقف مفتي الديار الفلسطينية ورئيس اللجنة العربية العليا في فلسطين الحاج أمين الحسيني المناصر للألمان كمثال عن التقارب الإسلامي النازي. بل ان بعض المنظرين الأوروبيين اليساريين يذهبون أبعد من ذلك، فهم يحاولون زرع فكرة خبيثة تربط المقاومة العربية في فلسطين بالفكر النازي ويناضلون لايجاد الأدلة على وجود علاقة، فكرية على الأقل، ما بين الحركات الاشتراكية القومية العربية كالحركة البعثية والناصرية وبين الفكر الألماني النازي. ويحاول هؤلاء أيضاً الترويج لمقولة أن الفكر «المعادي لليهود» منتشر أصلاً في الشرق الأوسط ويسعون بذلك إلى تصوير العرب أمام الرأي العام الغربي كداعمين معنويين للنازية وكمتورطين من الناحية الأخلاقية بما حصل لليهود ابان الحكم النازي، ربما بأثر رجعي؟! وعلى الرغم من عدم صحة هذه المقولات وظلمها للعرب والمسلمين وسوء النية البالغ في طرحها وفي اختلاق وحبك الروايات التاريخية لتثبيت مراميها، إلا أنه لا يمكن تجاهلها ولا بد من أخذها في عين الاعتبار عند التحدث الى الجمهور الذي يتلقى أصلاً كمية هائلة من الأفكار المعلبة المسيئة للاسلام وللعروبة. حيث يرى بعض الكتاب أن تناول بعض المتحدثين العرب والمسلمين لموضوع الهولوكوست في وسائل الإعلام ـ لا سيما الغربية ـ يؤدي إلى إنجاح مساعي هذه التوجهات الرابطة بين الإسلام والعروبة من جهة والنازية اللاسامية من جهة أخرى في الذهنية الغربية.

وبشكل موجز إن موضوع مجازر النازيين ومكانها في وجدان كل شعب من الشعوب الأوروبية هو موضوع غاية في التعقيد أو على الأقل أكثر تعقيداً مما في ذهن الكثير من المثقفين العرب، فهو يتعلق بنظرة الأوروبيين كشعوب لأنفسهم. وهو بعيد تماماً عن المقارنة ما بين وزن المسلمين السياسي أو الاجتماعي أو الديني في أوروبا بوزن اليهود. فصحيحٌ أن بعض التجمعات والعناصر السياسية المعادية للاسلام والمسلمين في الغرب هي ذاتها أكثر التجمعات انتصاراً لاسرائيل ولكن طرح قضايا حساسة غربياً بشكل سلبي أو ايجابي غير متوازن وغير مدروس في النقاش الفكري أو السياسي العلني في الغرب قد لا يخدم إلا هذه العناصر وتلك التجمعات.

أما الرد الحقيقي على ما يجري من احتقار وتدنيس للمسلمين ومعتقداتهم ومقدساتهم فهو اعتبار ما حصل شرارة التحول الاسلامي الكبير ولا أقصد بذلك اندلاع ثورة عنيفة من قبيل ثورات القرن الماضي التي عانينا منها ما عانينا. انما القصد بالتحول الاسلامي الكبير في مجتمعاتنا وفي جالياتنا العربية والاسلامية في الغرب هو الصحوة التنظيمية والتخطيطية. إن ما حصل من إساءة للمسلمين ومن ورد فعل إسلامي عام يمكن أن يوظف من قبل النخبة الإسلامية من علماء ومفكرين ومثقفين في التنوير لثقافة إسلامية جديدة. أساس هذه الثقافة هو الدعوة للجهاد الأكثر إلحاحا في هذه الحقبة من التاريخ. إنه جهاد البناء، بناء الأمة من جديد علمياً وثقافياً. إن ما حدث من انتفاضة إسلامية عامة، وإن كانت في كثير من الأحيان قدً أخطأت الهدف والوسيلة، يمكن أن يكون الرافعة الحقيقية للتغيير نحو الأفضل.

* كاتب من سورية

الحالة اليمنية: شاندالا.. أم واق الواق ثانيةً

مروان الغفوري*

■ .. ذكر لويس جاكوليوت في كتابه عن التشريعات الدينيّة عند مانو وصفاً غريباً لقبائل الشاندالا، وهي قبائل هندية كانت تقيم في البنغال الشرقية، فقال عنهم: (إنهم ثمار البغاء وزنى المحارم والانحراف. وفي اللباس عليهم أن يرتدوا أسمالاً بالية، وللآنية فقط يستعملون جفاناً مكسورة وللزينة حديداً قديماً، وللعبادة الدينية فقط الأرواح الخبيثة، ودون سلام عليهم أن يرتحلوا من مكان إلى مكان، وممنوع عليهم أن يكتبوا من اليسار إلى اليمين أو أن يستعملوا اليد اليُمنى للكتابة..إلخ). وبالطبع فإنّ أحداً سيبصق في وجه فردريك نيتشه حين ينقل مثل هذه النقول عنهم في حديثه عن الذين يريدون إصلاح البشريّة، وبطريقة تستعصي كثيراً على الفهم وتقترب من الميثولوجيا التاريخية إلى حد بالغ الإثارة. في حين يحسُن بنا، كيمنيين، أن نتسامح مع فهمنا قليلاً وأن نتناسى أن جدّنا القديم كان عبقرياً، وأن نعود إلى الوراء، في التاريخ، قليلاً.. بالتحديد إلى منتصف الخمسينات لنقرأ في «جزيرة واق الواق» لمهندس الثورة الشهيد الزبيري.. فكل ما جاء في وصف هذه الجزيرة وساكنيها لا يبعد كثيراً عن الشاندالا التي يتحدّث عنها نيتشه ومعلّمه جاكوليوت، وبتجوّز يسمح لنا أن نتخلّص من الأوصاف المستفزّة للشعور العام والأخلاق الفاضلة لألين قلوب وأرق أفئدة! وبالمناسبة: فإنّ عملية كوماندوزيّة، إن حدثت، تلم شعث كل التقارير الدولية التي تتحدث عن إخفاقات الدولة اليمنية منذ أواخر السبعينات وحتى اللحظة الراهنة ستخرج بكتاب ضخم يجوز تسميته، إن كانت التسمية تؤثر في أحد: ما قبل واق الواق، وما بعد الشاندالا!

نحنُ شاندالا، بالوصف العام لهذه الطبقة الملغاة من جدول الإنسانيّة، لا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نرفع رؤوسنا أو نتطلّع إلى عالم أكثر خضرة وجمالا. وكما لا يفوتني أن أقتبس كلمة لرئيس وزراء اليمن الأسبق وتحت قبّة البرلمان: على الشعب اليمني أن يأكل البر الأحمر (نوع رديء من الدقيق) وكلمة لرئيس الجمهوريّة يصف الشعب اليمني فيها بأنّه مجموعة من «الثعابين» (بالوصف المجازي) وبالتالي فإن هذا المجتمع الشاندالا هو خليط من الثعابين والفقاريات الدنيا التي تأكل ما تعافه البشرية.. فأنا أيضاً لا يفوتني أن أدلل على الشاندالية اليمنيّة بالحرمان العام، ليس للكتابة من الشمال إلى اليمين كما في الشاندالا الأصلية، بل للكتابة إجمالاً وللصحة والتثقيف وكل فرص الحضارة الراهنة. فتقرير المعهد العالمي للمعلومات يذكر مؤخّراً أن نسبة الأوراق (الأبحاث) العلميّة التي سجلّها المعهد لليمن في السنوات الخمس الأخيرة تساوي صفراً، وهي الدولة العربية الوحيدة التي نالت هذا الشرف الشاندالي العظيم عن جدارة واستحقاق، لذا فلم يعلق المعهد على هذه النتيجة لأنها متوقّعة كما أنها أتت استكمالاً لاستحقاقات صفرية سابقة ومستمرة. طبعاً، لن تثير هذه التقارير إحساساً من أي نوع لدى أي قارئ ناهيك عن السلطات. وسيكتفي كل من يمرون عليها بالقول: ما الجديد! وبعضهم بالحوقلة الإيمانية كاملة الخشوع. وطبيعي أن يكون هذا هو الرد الطبيعي بعد أن فرغت السلطات في مجتمعنا حالة من خليط لثقافتين عارمتين: الهزيمة، والجوع. فثقافة الهزيمة تشطبُ إمكانات النجاح وتتعايش مع التحدي والأزمة بوصفهما مستويات حياتية مقبولة وشرعيّة. والسلطات في اليمن تعكف على تكريس هذه الثقافة من خلال الحديث عن الحال المعسور وقلّة الحيلة وضيق ذات الموارد. وهي مغالطات بشعة تعكس حالةً من الترهّل الذهني لدى الجالسين على العرش، الذين لا يملكون مشروعاً ولا شرعيّة ما، غير شرعية الباراشوت التاريخي. فماليزيا استطاعت أن تقترب من دول العالم الأول، ثم تأهّلت لأن تكون، في خلال الـ15 سنة القادمة، الدولة التاسعة ضمن مجموعة الثماني الكبار، رغم قصر عمرها الحديث وانعدام الموارد في هذا المجتمع الزراعي الذي اعتاد أن يكون عالة على جيرانه. وليس غريباً أن يطلق «مهاتير محمد» كتابه الشهير (المشكلة الماليزية) في عام 1969 م محدداً فيه جوهر المشكلة الماليزية وخطوط نهضة الدولة والمجتمع، أن يفعل هذا قبل توليّه سدة الحكم بـ12 سنة. وهو بهذا يدمج بين الشرعية والمشروع، وبمثل هذا التآلف الحضاري تشكّلت الدولة الماليزية الحديثة.

أماً ثقافة الجوع فلها اقتضاءات أشد عنفاً. ذلك أنّ المتعايشين في ظل هذه الثقافة يتقبّلون الجوع بوصفه حالة وجوديّة تقود في نهاية الأمر إلى التصالح العام مع كل أنواع الحرمانات الأخرى. فأكثر ما يثير الكائن البشري ويمسّه بعنف هو هاجس البقاء، أي: سؤال التنمية. وهي الإثارة التي يثبّطها الجوع المزمن وشيوع النقص العام في التغذية كثقافة. وفي ظل سيادة هذه الثقافة (لاحظ أنّي أتحدّث عن مآل نهائي للجوع، أي تحولّه إلى ثقافة، وليس عنه بوصفه حالة طارئة) فإنّ التحدّي الحضاري يفشل تماماً في إحداث أي تغيير على أعلى أو أدنى مستوى. كما أنّ استتباعات من الحرمانات الأخرى على كافة الصّعُد: المعرفية والصحّية والسياسية والاقتصاديّة، تلي سيادة ثقافة الجوع. وحين يتحدّث المصلحون الاجتماعيون عن تغيير نمط حياة المجتمعات الفقيرة إلى الأفضل، فإن أخطر ما يواجهونه هو تغيير طريقة تفكير هذه المجتمعات، كمقدمة لزيادة وعي هذه المجتمعات بجوهر المشكلة والنظر إليها من منطقة مختلفة. فهي مجتمعات بائسة بفعل الجوع ومتصالحة مع حالة البؤس هذه فلا يكاد الجوع يمثّل لها مشكلة ما، وإنّ عملية دعم واسعة بالغذاء والدواء ستدفع هذه المجتمعات إلى الترهّل وكثرة الإنجاب وهو ما يضرب البرامج الإنمائيّة في الصميم. حلّ كهذا حين يقتضي تغيير طريقة التفكير سيدعونا إلى التعامل الجدي مع الحالة من مستواها الأعلى. فنحنُ نعلم أن الجالسين على العرش هم، سابقاً، نتاج لهذه الثقافة (ثقافة الجوع) وآلياتها التفكيرية، وهو ما يجعل من الرهان على إحساسهم بجوهر الأزمة مشكلاً في حد ذاته وطوبوياً. فالذين ولدوا ونشأوا في ظل شيوع نمط ما من أنماط التفكير والوعي من الصعب عليهم أن يتعاملوا مع كل الواقع المفرود أمامهم بوصفه مأزقاً، بل بوصفه وضعاً لا مهرب منه، وأن التعايش معه هو الطريق الأسلم لكسر حدّته. إنّ هذا هو ما يحدث تماماً وهو ما يجعل الجالسين على العرش يفزّون كالمسوسين إلى نيويورك وإلى مكاتب الجمعية العامّة للأمم المتّحدة في كل مكان حين تقرر الأخيرة رفع اسم اليمن من قائمة الدول الأكثر فقراً إلى الدول الفقيرة. لا يمكن لمن يعيش هذه الثقافة أن يشعر بالحرج أو بالخزي، فهو ينسب الأمر إلى السماء والأرض، وليس إلى طريقة تفكيره. فالسماء أذنت للأرض أن تأكل نفطها، فجاع الشعب! يبدو هذا المشهد سخيفاً ومستفزّاً، لكنّه أقل استفزازاً من العودة المظفّرة لساداتنا وكبرائنا بالشاة والبعير بعد طرق أبواب بيوت الدنيا كلّها، ويعدون ذلك انتصاراً مهمّاً يضاف إلى قائمة انقلاباتهم على كل قيم المنطق والأخلاق!

هناك حل آخر في الحالة اليمنية، وهو بالتأكيد غير الحل الذي افترضه مالتوس بدعوته إلى قتل غير المنتجين وإلا كان الفناء نصيب المجتمع المفروض. يقتضي هذا الحل ترك الأمر على ما هو عليه، والرضا بالموجود، وتهييج المشاعر إلى الدار الآخرة. وبالرغم من أن هذا الحل غير فعّال في مجتمع شاندالا، وسيفشل هو الآخر أمام قاعدة اجتماعية خطيرة تقول: إنّه يكفي أن تنشر الجوع في مدينة لكي يتحوّل أهلها إلى مجرمين، إلا أنه هو الحال الساري حاليّاً، وحتى حين. فالنظام الراهن فاشل بكل معاني الفشل العام، وقد نجح في إخراج اليمن من دائرة التأثير العلمي والثقافي خارجيّاً وداخليّاً، ويكفي أن يلقي المرء نظرة على النتاجات الثقافية والمعرفية في اليمن أو على الصفحات الخاصة بالأدب والثقافة في الصحف الرسميّة وفي موازياتها الحزبيّة ليخرج بتصوّر أولّي عن حجم مشكلة المعرفة في اليمن. أقول هذا وأنا أقرأ الآن نتائج جائزة الشارقة للإبداع العربي لهذا العام، وأمامي عدد مخزٍ من المشاركة اليمنيّة ولا «نتيجة» لصالح اليمن، كسابق عهد اليمن في حضورها الثقافي العربي. وهو ما أدّى بالطبع إلى تواصل مشروع الفشل الثقافي العام الداخلي والخارجي وتفشّيه. من حق العالم، والحال كذلك، ألا يستغرب حين يعلم أن عدد الندوات الثقافية التي أقامتها صنعاء (عاصمة الثقافة العربية) على مدار عام كامل، لم تصل إلى نصف عدد الندوات التي أقامها معرض القاهرة للكتاب في ثلاثة أسابيع، والسبب في ذلك أننا شعب شاندالا محرّم علينا الكتابة من الشمال إلى اليمين وحتى من اليمين إلى الشمال!

مؤسف أن الجميع يتحدّث عن الفشل الاقتصادي ويسرد التقارير الدولية التي نشرت غسيل الدولة اليمنية في كل أزقّة العالم، ويتناسى فشلاً لا يقل خطورة هو الفشل المعرفي والصحّي. فالشعب الجائع لا ينتج معرفة، والمعرفة لا تنمو في أجساد مريضة والمريض والجائع والجاهل لا يمكن إلا أن يكون قاطع طريق. أيضاً: يثير الضحك والقرف معاً أن تقف جهات في أعلى أجهزة الدولة لتتحدّث عن تنمية ومشاريع نهضة، دون الالتفات لحقيقة أن المستهدف الأول من التنمية وهو عنصرها الأول في آن واحدة.. المجتمع. وأن هذا العنصر المنوط به الحراك التنموي وأن يجني هو ثمرة الناتج القومي العام هو عنصر غير فاعل لأنه ليس مؤهلاً للدخول في استحقاقات التنمية من نشاط ومعرفة وخبرة وتجربة ومؤهلات علمية وثقافة منافسة وإنتاجية.

لقد قصمت الدولة ظهره ثم هي تتحدّث عن تنمية لا تحققها إلا عصا موسى. والدولة بهذا الأسلوب السوقي تؤصّل لنكتة «العبيد السعداء» وهي نكتة اقتصادية تفترض أن تقوم الدولة بعمل كل ما يخص التنمية (الصحية والعلمية والاقتصادية) بشكل منفرد بعيداً عن مشاركة المواطن، وأنّ على هذا المواطن أن يجني ثمارها معزّزاً مكرّماً. لا تنسى هذه النكات الاقتصادية أن تشير بذكائها الماكر إلى أن هذا النوع من التنمية يفترض أن يقوم به ملائكة منزلون!

إننا، اليمانيين، فعلاً، خارج الجاهزية الحضارية.. بكل استحقاق.

* شاعر وكاتب يمني مقيم في القاهرة

حين يتحول العراق الى مغترب في عقر داره وتتحول قواه الفاعلة الى طوائف متناحرة

عادل الحامدي*

■ يجمع أحدكم في بطن أمه فيكون نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة وهكذا، «فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يتقون».... الانسان كائن اجتماعي بامتياز ففي الأرحام ولا أقصد «الله الله في أرحامكم أهل العراق يا أهل المروءة والمجد يا أهل العراق» وانما أقصد أصل الخليقة أي الانسان هذا الكائن الاجتماعي حتى في عالم البيولوجيا باستثناء آدم وابنه عيسى حيث شاء المبدع ان يكونا بعيدين عن عالم الأحياء.

ما وراء ذلك تشهد حرفية النبوة وحدية الميتامورفوزيا في عالم الأحياء على اننا كائنات طائفية بلا منازع: «انا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم..» ولا ينفع بعد محكم التنزيل شهيد فالطائفية طائفيات منها المحمود ومنها ما هو غير ذلك حتى قال فيها امام الانبياء عليهم السلام: «دعوها فهي منتنة».

كانت الطائفية في لبنان عامل ثراء فكري وثقافي وسياسي حتى ان لبنان ما قبل الاستقلال وما بعد الاستقلال كان مطمورة روما الثقافية على مستوى الجناح الشرقي للطائر الحضاري العربي الاسلامي الكبير. وأذكر ان مرحلة جمال عبد الناصر التي بلغ فيها مستوى الكتاب العربي أوجه على مستوى الكتابة والنشر كان نتيجة العقل العربي في مصر وفي بقية الاقطار العربية ليتحول الى الماكينة الثقافية والسياسية في لبنان، واذ أذكر بهذا انما للتأكيد على ان التنوع الديني والثقافي مثل دائما عامل ثراء عبر الاجتماع البشري، ففي الغرب تحرص ما يسمى بالدول الاستعمارية القديمة والحديثة على تنويع ثقافات مجتمعاتها وتنويع اثنيا التركيبة الاجتماعية لهذه البلدان لانها تدرك جيدا انه لا سبيل الى قيام قوة اقتصادية وسياسية مؤثرة على المستوى الاقليمي والدولي بغير تنويع هذه الدماء وتجديدها على الدوام. ومن ثم يتسنى لي القول ان العراق وثقافة العراق وسياس العراق ووزن العراق كان عبر التاريخ مؤثرا وحاضرا لسبب رئيس هو هذا التنوع الذي يريد البعض ان يصوره على انه عامل من عوامل التردي والانقسام.

لقد عمدت عن سوء نية لعنونة مقالي بهذا المصطلح الاستفزازي حتى يتمكن لي النفاذ الى وضع الابهام على الأورام المؤلمة للوطن العربي، فما نطلق عليه اليوم طائفية مثل أيضا عامل بناء بل كان سببا في اشادة أكبر الحضارات الانسانية التي عرفها الانسان في مرحلة جد وجيزة وأعني بها الامبراطورية الغاربة أي مرحلة صد الاسلام.